

الاعتراض في الموروث العربي - مفهومه وقيّمته في النص

أ.د. ثامر سمير حسن الشمري

كلية التربية الأساسية/ جامعة بابل

Objection in the Arabic Heritage – Its Concept and Value in the Text

Prof. Dr. Thamir Sameer Hasan Al-Shimmari

College of basic Education / University of Babylon

dr.thaar@yahoo.com

Abstract

The research studied objection linguistically and terminologically. It is noticeable that the linguists do not greatly vary in specifying the concept of objection; the definitions extensively similar. Terminologically speaking, its definition is closely related to its linguistic concept; objection relies on hindering the linguistic process attracting the reader's attention to another new matter without referring to its defect or affecting it negatively. The research also included the old critics' attitudes towards this phenomenon and its effect on the text whether it is a Quran or poetic text.

الملخص:

في بحثنا هذا تمت دراسة الاعتراض لغة واصطلاحاً، ولحظنا فيه عدم اختلاف أصحاب اللغة كثيراً في تحديد مفهوم الاعتراض، فقد جاءت التعريفات متشابهة إلى حد كبير، وكان تعريفه من الناحية الاصطلاحية ذا صلة قوية ومتماسكة مع مفهومه لغة، فالاعتراض يقوم بايقاف العملية اللغوية، ملفتاً القارئ إلى مسألة جديدة أخرى، من دون أن يعيها أو يؤثر فيها سلبياً، كما تناولنا فيه موقف النقاد القدامى من الظاهرة، وأثره في النص سواء أكان نصّاً قرآنياً، أم نصّاً شعرياً.

الكلمات المفتاحية: الاعتراض، المفهوم، النص

الاعتراض لغة:

لم يختلف أصحاب اللغة كثيراً في تحديد مفهوم الاعتراض، بل جاءت تعريفاتهم له متشابهة إلى حد كبير، وكان الاختلاف محصوراً في حيز ضيق، من خلال الزيادة في التعريف له أو الاختصار، لذا آثرنا التفصيل في عرض التعريفات كما جاءت لدى اللغويين من دون الاختصار أو الإشارة إلى التعريفات المتشابهة؛ لما في ذلك من إبراز لمفهوم الاعتراض لغة بحسب التسلسل الزمني لمن تداولوا تعريفه وبيّنوا مفهومه.

جاء في (تهذيب اللغة) لأبي منصور محمد بن أحمد الأزهرى (ت370هـ)، " ويقال اعترض الشيء، إذا منع، كالخشبة المعترضة في الطريق تمنع السالكين سلوكها. واعترض فلان عرض فلان، إذا وقع فيه وتنقّصه في عرضه وحسبه. ويقال اعترض له بسهم، إذا أقبل به قبله فأصابه. واعترض الفرس في رسته، إذا لم يستقم لقائده".⁽¹⁾

أما في (معجم مقاييس اللغة)، لأبي الحسن أحمد بن فارس بن زكريا الرازي (ت395هـ)، فورد قوله: " اعترض في الأمر فلان، إذا أدخل نفسه فيه، وعارضت فلاناً في الطريق، وعارضته بالكتاب، واعترضت أعطي من أقبل وأدبر، وهذا هو القياس؛ واعترض فلان عرض فلان يقع فيه، أي يفعل فعلاً يأخذ عرض عرضه، واعترض الفرس، إذا لم يستقم لقائده".⁽²⁾

ولم يبتعد الرازي (ت666هـ) في (مختار الصحاح) في تحديده مفهوم الاعتراض لغة عن سابقيه، بل اقترب كثيراً منهما، فبدأ حدّ الاعتراض لديه من خلال قوله: " واعترض الشيء، صار عارضاً كالخشبة المعترضة في النهر. يقال: اعترض الشيء دون الشيء أي حال دونه".⁽³⁾

(1) تهذيب اللغة، مادة عرض.
(2) معجم مقاييس اللغة، مادة عرض.
(3) مختار الصحاح، مادة عرض.

وعلى النحو هذا تتوالى التعريفات اللغوية في مفهوم الاعتراض من دون اختلاف كبير بين اللغويين، فهذا ابن منظور (ت711هـ) في (لسان العرب) يردد ما تكلم عليه السابقون، يقول: "واعترض: انتصب ومنع وصار عارضاً كالخشبة المنتصبة في النهر والطريق ونحوها تمنع السالكين سلوكها، ويقال اعترض الشيء دون الشيء أي حال دونه".⁽¹⁾ وعرفه الفيروز أبادي (ت718هـ) في (القاموس المحيط) بقوله: "والاعتراض: المنع والأصل فيه أن الطريق إذا اعترض فيه بناءً أو غيره منع السابلة من سلوكه. واعترض: صار وقت العرض ركباً، وصار كالخشبة المعتضة في النهر".⁽²⁾

على الرغم من التغيير الطارئ على بعض الألفاظ في تعريف الفيروز أبادي، نجد الدلالة باقية كما هي لدى السابقين له، فتعريفه لا يخرج -في مضمونه- عن وجود شيء مانع يحول دون شيء آخر من السير بطريقة اعتيادية، وهذا ما طرحه السابقون كلٌ بحسب أسلوبه وألفاظه التي اختارها.

وكذا الحال مع الفيومي (ت770هـ) في (قاموس المصباح المنير)، فهو الآخر لم يضيف شيئاً يُغيّر من مفهوم الاعتراض لغة، وذلك في تعريفه له؛ إذ قال: "يُقال: سُرْتُ (فَعَرَضَ) لي في الطريق (عارضاً) من خبلٍ ونحوه أي مانع يمنع من المضي و(اعترض) لي بمعناه".⁽³⁾

ولم تخرج التعريفات الأخر التي حاولت تحديد مفهوم الاعتراض لغة عن مضمون التعريفات التي تمثلنا بها جميعاً، حتى لدى المحدثين من المعنيين بالاعتراض⁽⁴⁾، فكلها كانت تدل على مضمون واحد تقريباً، وهو وجود مانع أو عارض يحول الشيء دون الشيء، بمعنى أن هناك أمراً يوقف السير الطبيعي للإنسان أو الأشياء، فيكسر الرتابة والاستمرارية، سواء أكانت بناءً في الطريق أم جبلاً أم خشبةً في النهر كما رأينا.

الاعتراض اصطلاحاً:

إن مفهوم الاعتراض -بوصفه ظاهرة لغوية وبلاغية- اصطلاحاً، كان ذا صلة قوية ومتماسكة مع مفهومه لغة، إذ كان المفهومان قريبين جداً في الدلالة، وذلك واضح من خلال التعريفات التي تداولها أصحاب اللغة والبلاغة، والتي وصفوا بها الاعتراض اصطلاحاً، فهو (الاعتراض) لدى (الحاتمي) (ت388هـ) "أن يكون الشاعر أخذاً في معنى فيعدل عنه إلى غيره، قبل أن يتم الأول، ثم يعود إليه فيتمه".⁽⁵⁾

وعرفه أبو هلال العسكري (ت395هـ) بأنه: "اعتراض كلام في كلام لم يتم، ثم يرجع إليه فيتمه"⁽⁶⁾، وفي الوقت الذي يتفق فيه الحاتمي وأبو هلال العسكري على تسميته بالاعتراض، نجد الآمدي (ت456هـ) مطلقاً على الظاهرة تسمية (الالتفات) بدلاً من الاعتراض، ثم يعرفه بقوله: "وسبيله أن يكون الشاعر أخذاً من معنى ثم يعرض له غيره فيعدل عن الأول إلى الثاني فيأتي به، ثم يعود إلى الأول من غير أن يخل في شيء مما يشد الأول".⁽⁷⁾

والاعتراض لدى ابن شيث القرشي (ت: في أواخر القرن السادس الهجري) "أن يذكر قضية ثم يحاشيه منها"⁽⁸⁾. وهو لدى ابن الأثير الجزري (ت637هـ) "كل كلام أدخل فيه لفظ مفرد أو مركب لو سقط لبقى الأول على حاله".⁽⁹⁾ وعرفه الخطيب القزويني (ت739هـ) بقوله: "وهو أن يؤتى في أثناء كلام أو بين كلامين متصليين معنىً بجملة أو أكثر لا محل لها من الإعراب لنكتة".⁽¹⁰⁾

(1) لسان العرب، مادة عرض.

(2) القاموس المحيط، مادة عرض.

(3) قاموس المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للرافعي، مادة عرض.

(4) ينظر: المعجم الوسيط، مادة عرض، ومعجم المصطلحات البلاغية وتطورها، مادة عرض.

(5) حلية المحاضرة في صناعة الشعر 157/1.

(6) كتاب الصناعتين الكتابة والشعر/441.

(7) العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده 45/2.

(8) معالم الكتابة ومغانم الإصابة/80.

(9) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر 163/2.

(10) الإيضاح في علوم البلاغة، المعاني والبيان والبديع 158/1.

واقترع تعريف الزركشي (ت794هـ) للاعتراض كثيراً من تعريف الخطيب القزويني له، فقد عرّفه الزركشي بقوله: "وهو أن يؤتى في أثناء كلام أو كلامين متصلين معنى، بشيء يتم الغرض الأصلي بدونه، ولا يفوت بفواته، فيكون فاصلاً بين الكلام والكلامين لنكتة".⁽¹⁾

غير أن الزركشي أضاف تعريفاً آخر أكثر نضجاً من التعريف السابق المتداول لدى أكثر الذين سبقوه - زمنياً - وذلك حين قال: "وقيل: هو إرادة وصف شيئين: الأول منهما قصداً، والثاني بطريق الانجرار؛ وله تعلق بالأول بضرب من التأكيد".⁽²⁾ ثم أضاف أنه (الاعتراض) عند النحاة جملة صغرى تتخلل جملة كبرى؛ على جهة التأكيد⁽³⁾، وهذان المفهومان الأخيران يبدوان أكثر دقة، وأقوى دلالة في بيان مفهوم الاعتراض من حيث المصطلح.

ولم تخرج التعريفات الأخرى عن دلالة التعريفات السابقة، فالاعتراض لدى ابن حجة الحموي (ت837هـ) عبارة عن جملة تعترض بين كلامين تفيد زيادة في معنى غرض المتكلم⁽⁴⁾.

ومفهوم الاعتراض لدى علي بن محمد الجرجاني (ت861هـ) "هو أن يأتي في أثناء كلام، أو بين كلامين متصلين، معنى بجملة أو أكثر لا محل لها من الاعراب لنكتة سوى رفع الإبهام".⁽⁵⁾

مما سبق يتبين لنا أن هناك علاقة قوية بين مفهوم الاعتراض لغة واصطلاحاً؛ فهو في اللغة دلّ على وجود مانع في الطريق كالبنا أو الجبل، وقد يكون ذلك المانع في النهر كالخشبة، مما يؤدي إلى عرقلة السير في كليهما، وبدا ذلك المعنى نفسه جلياً في مفهومه الاصطلاحي، مع الفارق في الدلالة، كون الاعتراض مصطلحاً من المفاهيم التي تتصل بقضية لغوية معنوية لا مادية كما في المفهوم اللغوي، إذ اتضح لنا أن الاعتراض يقوم بإيقاف العملية اللغوية سواء أكانت في الكلام الاعتيادي، أم في القرآن الكريم، أم في الشعر، فهو (الاعتراض) يوقف الجملة الأولى ويقطعها، ملفتاً القارئ أو السامع إلى مسألة أو قضية أخرى، ثم تتم العودة لإتمام الجملة الأولى من دون إصابتها بعيب، أو التأثير فيها سلبياً، بل على العكس، يكون التأثير إيجابياً في أكثر الأحيان، فهذه العملية تحرّك عقل المتلقي (قارئاً ومستمعاً)، وتجعله يتساءل عن السرّ في تنوّع الخطاب، وحينها سيدرك أن وراء ذلك دلالات ومقاصد مهمة.

قيمة الاعتراض في النص:

بعد أن تبين لنا مفهوم الاعتراض لغة واصطلاحاً، أن لنا أن نتعرّف قيمته في النص اللغوي، سواء أكان في النصّ الإلهي (القرآن الكريم)، أم في النصّ الشعري، من خلال الاستقراء الدقيق للموروث البلاغي والنقدي عند العرب القدماء، الذين أولوه عناية كبيرة في دراساتهم ومؤلفاتهم، على الرغم من اختلاف كثير منهم في بيان تلك القيمة، أو في تحديد المفهوم أصلاً، كما سيُتضح لنا فيما سيأتي.

إنّ بعض البلاغيين والنقاد القدماء عدّوا الاعتراض أمراً مستحسناً في النصّ اللغوي بصرف النظر عن هوية ذلك النصّ وجنسه، في الوقت الذي عدّه فيه بعضهم حشواً ليس من ورائه طائل، لذا أثّرنا عرض تلك المواقف بشيء من التفصيل لأهميتها في بيان القيمة الحقيقية للاعتراض، سواء أكان الحديث - عن تلك القيمة - في النصّ القرآني أم في الشعر.

فقد استحسن ابن المعتز (ت296هـ) الاعتراض، وعدّه من محاسن الكلام والشعر على السواء، حين قال: "ومن محاسن الكلام أيضاً والشعر اعتراض كلام في كلام لم يتمّ معناه ثم يعود إليه فيتمّه في بيت واحد"⁽⁶⁾، غير أننا نستدرك على الوهم الذي وقع فيه ابن المعتز في نهاية قوله الذي جاء فيه أن تتميم المعنى يكون في بيت واحد، علماً أنه (ابن المعتز) انفرد وحده من دون النقاد والبلاغيين الذين جاءوا بعده بالمعلومة هذه التي يمكن أن أصفها بغير الدقّة، إذ لم

(1) البرهان في علوم القرآن 62/3.

(2) م.ن 62/3.

(3) م.ن 62/3.

(4) خزانة الأدب وغاية الأرب 366.

(5) كتاب التعريفات/24، وينظر: المعجم المفصل في اللغة والأدب، نحو-صرف-بلاغة-عروض-إملاء-فقه اللغة-أدب-نقد-فكر أدبي 166/1.

(6) كتاب البديع/59.

يشترط من جاء بعده أن يتم معنى الجملة الأولى ببيت واحد فقط بعد مجيء الجملة أو الكلمة الاعتراضية، إذ كان واهماً بالتحديد هذا، مع أنه تمثل بمجموعة أبيات بوصفها أدلة على رؤيته، فقد استشهد بقول أحد الشعراء:

فَظَلُّوا بِيَوْمٍ - دَعِ أَخَاكَ بِمِثْلِهِ - عَلَى مَشْرِعٍ يُرَوَّى وَلَمَّا يُصْرَدُ (1)

ثم تمثل ببيت كثير الذي يقول فيه:

لَوْ أَنَّ الْبَاخِلِينَ - وَأَنْتَ مِنْهُمْ - رَأَوْكَ تَعَلَّمُوا مِنْكَ الْمَطَالَ (2)

وجاء بشاهد أخير دلالة على صحة رؤيته بأن التتيم يكون في بيت واحد، مصرّحاً أن البيت للنابغة الجعدي، وفي الحقيقة هو للنابغة الذبياني، يقول فيه:

أَلَا زَعَمْتُ بَنُو سَعْدٍ بِأَنِّي - أَلَا كَذَبُوا - كَبِيرُ السَّنِّ فَانِ (3)

وفي الحقيقة أنا لم ادّع أن ابن المعتز كان واهماً في كون إتمام الجملة في بيت واحد إلا بعد الاستقصاء والبحث في الشعر العباسي، إذ حصلت على مجموعة من الأبيات، كانت الجمل الاعتراضية فيها تطول وتستمر في أكثر من بيت، ومن ثم يأتي إتمام الجملة الأولى التي قطعها الشعراء باعتراضاتهم الطويلة، وهذا ما ينفي رؤية ابن المعتز ويدحضها بالدليل، وأول تلك النصوص قول أبي علي البصير في بيان معاناة المرفقة (المخدة) بسبب افتراقها عن مثيلتها، وشعورها بالوحدة:

مِرْفَقَةٌ أُعْطِيَتْهَا فَرْدَةٌ رُمْتُ لَهَا أُخْتًا فَلَمْ يَتَّفَقْ
يَقُولُ مَنْ أَبْصَرَهَا عِنْدَنَا مَوْضُوعَةٌ: مَا هِيَ إِلَّا سَرَقُ
قَالَتْ وَقَدْ صَدَّرْتُ بَيْتِي بِهَا مَقَالَ مَوْتُورٍ مَغِيْظٍ حَنْقُ
وَاسْتَنْكَرْتُ مَا هُوَ مُسْتَنْكَرٌ مِنْ ضَيْعَةٍ الْقِرْمِزِ بَيْنَ الْخَرَقِ
وَذَكَرْتُ أُخْتًا لَهَا عِنْدَكُمْ كَانَتْ وَإِيَّاهَا مَعًا فِي نَسَقٍ -
تَعْسًا لِمَنْ فَرَّقَ مَا بَيْنَنَا وَلَمْ يَكُنْ فِي الْحَقِّ أَنْ نَفْتَرِقَ (4)

فالمقطوعة ستة أبيات، استمرت الجملة الاعتراضية فيها طوال ثلاثة أبيات متتالية، ولم يتم معنى الجملة الأولى إلا في البيت السادس.

ومثل قول أبي علي البصير قول مهيار الديلمي، الذي لم تتم فيه الجملة الأولى إلا في البيت الرابع، إذ جاءت الجملة الاعتراضية في ثلاثة أبيات على التوالي، يقول فيه:

اقُولْ - وَقَدْ تَعَرَّمْ جُرْحَ حَالِي وَسَدَّ عَلَى مَطَالِيعِي السَّرَاحُ
وَكَاشَفَنِي وَكَانَ مَجَامِلًا لِي عَبُوسُ الْوَجْهِ مِنْ زَمَنِي وَقَاخُ
وَقَدْ مَنَعْتُ غَضَارَتَهَا وَجَفَّتْ عَلَى أَخْلَاقِهَا الْأَيْدِي الشَّحَاخُ -
غَدًا يَا نَفْسُ فَانْتَظِرِي أَنَا سَاءَ هُمْ فَرَجٌ لَصَدْرِكَ وَانْشِرَاخُ (5)

(1) م.ن/ 60.

(2) م.ن/ 60، ولم أعر على البيت في ديوان كثير عزة، شرح: عدنان زكي درويش.

(3) كتاب البديع/ 60، والبيت في ديوان النابغة الذبياني/ 113.

(4) أبو علي البصير، حياته وشعره/ 275، المرفقة: ما يترفق عليه من منكأ أو مخدة. السرق: مصدر سرق، أي مصدر فعل السارق. الموتور: المقتول حميمه. الحنق: الشديد الغيظ. القرمز: صبغ لونه احمر قان، ويريد به ما صبغت به المرفقة. الخرق: جمع خرقة، القطعة من الثوب الممزق. النسق: ما كان على نظام واحد من كل شيء.

(5) ديوان مهيار الديلمي 208/1، السراح: التسريح.

وللشاعر نفسه أبيات أخر أكمل فيها جملته الأولى في البيت الثالث بعد أن اعترض بين كلامه الأول بجملة طويلة استغرقت بيتين بأكملهما، إذ يقول في الدعاء بالسقيا للمكان الذي قضى فيه أيام صباه وشبابه:

سقى	الله-ما	كرمت	مزنة	وما	وضعت	حامل	مُعَصِر
وحنت	فدرت	على	أرضها	سماء	تبوح	بما	تُضْمِرُ-
ملاعِبنا	بالحمى	والزما	نُ	أعمى	وليلُ	الصبا	مُقْمِرُ ⁽¹⁾

إذن، ثبت لنا بالأدلة أنه ليس شرطاً أن يتم الكلام الذي سبق الاعتراض في بيت واحد كما رأى ابن المعتز، وإنما قد يتم بعد عدة أبيات كما رأينا في الشواهد الشعرية السابقة.

وفي عود على موضوع حديثنا الرئيس عن قيمة الاعتراض في النص، نجد الحاتمي (ت388هـ) بعد أن عرّف الاعتراض، رأى أنه "يكون فيما عدل إليه مبالغة في الأول، وزيادة في حسنه"⁽²⁾، وهو برأيه هذا أعرب عن موقفه المؤيد للاعتراض، إذ أشاد به وجعل مضمون الجملة الاعتراضية تزيد من الحسن في مضمون الجملة الأولى، فضلاً عن المبالغة فيها.

ونجد تقييماً متميزاً للاعتراض لدى ابن جني (ت393هـ)، فهو بعد أن مدحه بقوله: "والاعتراض في هذه اللغة كثير حسن"⁽³⁾، راح يفصل القول فيه، ويتمثل له من القرآن الكريم والشعر العربي، ليؤكد جماليته في النص، سواء أكان في القرآن الكريم، أم في الشعر العربي، إذ قال: "أعلم أن هذا القبيل من هذا العلم كثير، قد جاء في القرآن، وفصيح الشعر، ومنثور الكلام. وهو جارٍ عند العرب مجرى التأكيد، فلذلك لا يشنع عليهم، ولا يستنكر عندهم، أن يعترض به بين الفعل وفاعله، والمبتدأ وخبره، وغير ذلك مما لا يجوز الفصل فيه بغيره، إلا شاذاً أو متأولاً"⁽⁴⁾.

ولتوضيح كلامه تمثل بثلاث آيات كريمات من سورة الواقعة، وهي قوله سبحانه وتعالى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ﴾⁽⁵⁾، ثم تحدث عن الاعتراض في الآيات السابقات بقوله: "فهذا فيه اعتراضان: أحدهما قوله: ﴿وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾، لأنه اعترض به بين القسم الذي هو قوله: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ﴾، وبين جوابه الذي هو قوله: ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ﴾، وفي نفس [كذا] هذا الاعتراض اعتراض آخر، بين الموصوف الذي هو (قسم) وبين [كذا] صفته التي هي (عظيم)، وهو قوله: (لو تعلمون) فذالك اعتراضان كما ترى. ولو جاء الكلام غير معترض فيه لوجب أن يكون: فلا أقسم بمواقع النجوم، إنه لقرآن كريم، وإنه لقسم عظيم لو تعلمون"⁽⁶⁾.

وبعد أن فصل ابن جني حديثه في الآيات السابقات مبيناً تفاصيل الاعتراض الذي احتوته، راح يتمثل بمجموعة كبيرة من الأبيات الشعرية التي تضمنته، دالاً على الاعتراضات التي فيها⁽⁷⁾، وختم ذلك كله برأي لطيف وناضج دل على استحسانه للاعتراض حين رأى فيه الكثرة والحسن والفصاحة والقوة، قائلاً: "والاعتراض في شعر العرب ومنثورها كثير وحسن، ودل على فصاحة المتكلم وقوة نفسه وامتداد نفسه، وقد رأيت في أشعار المحدثين"⁽⁸⁾.

ورأى احمد بن فارس (ت395هـ) أن الجملة الاعتراضية تكون مفيدة، فهي - بنظره - لا يمكن أن تأتي من دون فائدة، قال: "ومن سنن العرب أن يعترض بين الكلام وتماهه كلاماً، ولا يكون هذا المعترض إلا مفيداً. ومثال ذلك أن يقول القائل: "اغمل - والله ناصري - ما شئت" إنما أراد: اغمل ما شئت. واعتراض بين الكلامين ما اعترض"⁽⁹⁾.

(1) م.ن 33/2، المزنة: المطرة، المعصر: الجارية التي بلغت شبابها.

(2) حلية المحاضرة في صناعة الشعر 157/1.

(3) الخصائص 331/1.

(4) م.ن 335/1.

(5) الواقعة/ 77-75.

(6) الخصائص 335/1.

(7) ينظر: م.ن 340-335/1.

(8) م.ن 341/1.

(9) الصاحبى في فقه اللغة العربية ومسائلها وسنن العرب في كلامها/ 190.

إن قول ابن فارس يمكن أن نلمح فيه شرط الفائدة في الجملة الاعتراضية من خلال قوله: "ولا يكون هذا المعترض إلا مفيداً"، وبما أن الاعتراض لديه ذو فائدة، نراه لجأ إلى التمثيل ببعض الأدلة الشعرية والقرآنية بوصفها تؤكد ما يذهب إليه، فاستشهد بقول الشاعر الشماخ بن ضرار الذي يقول فيه:

لولا ابنُ عفان-والسلطانُ مُرتَقِبٌ أوردتُ فجاً من اللُغَاءِ جُلُودِي⁽¹⁾

واكتفى بعد التمثيل بالبيت بتوضيح موقع الجملة المعترضة (والسلطان مرتقب) من خلال وقوعها بين قول الشاعر: (لولا ابن عفان)، وقوله: (أوردت)⁽²⁾، ثم استشهد بجزء من الآية القرآنية الآتية: ﴿وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّ كَانَ كَبْرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذَكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ﴾⁽³⁾، قائلاً عن الاعتراض الذي احتوته: إنما أراد: إن كان كبير عليكم مقامي وتذكيري بآيات الله فأجمعوا أمركم. واعتراض بينهما قوله: ﴿فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ﴾⁽⁴⁾.

وبعد توضيح موقع الاعتراض في الآية، تمثل ابن فارس ببيتي الأعشى اللذين يقول فيهما:

فإن يُمسِ عندي الهمُّ والشيبُ والعشا فقد بن مني - والسلام تفلق -
بأشجع أخاذٍ على الدهرِ حكمه فمن أي ما تجني الحوادث أفرق⁽⁵⁾

وكعادته اكتفى بالتعليق على موقع الاعتراض وتقدير الكلام، قائلاً: "أراد: بن مني بأشجع. (والسلام تفلق) اعتراض. ومثل هذا في كتاب الله جل ثناؤه وأشعار العرب كثير، وإنما نذكر من الباب رسماً".⁽⁶⁾

إن استشهد أحمد بن فارس بالآية القرآنية الكريمة وبآيات الشعراء الشماخ بن ضرار والأعشى، جاء بوصفه تأكيداً على حدوث الفائدة من الجملة الاعتراضية، بمعنى أن قيمة الاعتراض في النص - لديه - تكمن في إحداثها الفائدة، وهذا إقرار في صالح الاعتراض حتماً، إلا أن ما يمكن أن نسجله على ابن فارس هو أن الجملة الاعتراضية لا تأتي مفيدة في بعض الأحيان، بل قد تأتي في الشعر من دون أية إضافة مفيدة، فهي ليست أكثر من حشو، كما في قول البحرري مثلاً:

لا تنظرن إلى (الفياض) من صغر في السن، وانظر إلى المجد الذي شادا
إن النجوم-نجوم الليل - أصغرها في العين أذهبها في الجوّ إصغادا⁽⁷⁾

فاعترض البحرري (نجوم الليل) لم يكن ذا فائدة إطلاقاً، فهو توضيح لمعنى النجوم، وهو معروف أصلاً، لذا جاء من دون أية فائدة، ومثله قوله أيضاً مادحاً المتوكل:

أتى من بلاد الغرب في عدد النقا -نقا الرمل- من فرسانه وخيوله⁽⁸⁾

إن اعتراضه (نقا الرمل) مثل اعتراضه (نجوم الليل)، لا فائدة تُرجى منه ؛ لأنّ النقاد معروف (القطعة من الرمل)، فجاء توضيحه للنقاد حشواً ومن دون فائدة.

ولابن الرومي بيت يتحدث فيه عن الشبية التي تعدي الشعر الأسود المتبقي في رأسه حين طلوعها، يقول فيه:

تُعدي -إذا ما بدت - صواحِبها كأنها غرة من الغر⁽⁹⁾

(1) ينظر: م.ن/ 190، والبيت في ديوان الشماخ بن ضرار / 112، اللغباء: موضع كثير الحجارة بحزم بني عوال. وسبخة بالبحرين. والجلمود: الصخر. والفج: الطريق الواسعة بين جبلين.

(2) ينظر: الصاحبي في فقه اللغة ومسائلها وسنن العرب في كلامها/ 190.

(3) يونس/ جزء من الآية 71.

(4) الصاحبي في فقه اللغة العربية ومسائلها وسنن العرب في كلامها/ 190.

(5) م.ن/ 190-191، والبيتان في ديوان الأعشى/ 118، الأشجع: الشجاع.

(6) الصاحبي في فقه اللغة العربية ومسائلها وسنن العرب في كلامها/ 191.

(7) ديوان البحرري 610/1-611.

(8) م.ن/ 1634/3، النقا: القطعة من الرمل المحدودة.

(9) ديوان ابن الرومي 1034/3.

فاعترضه (إذا ما بدت)، أي الشبهة، لا قيمة له، وليس فيه فائدة توضّح معنىً خفياً أو ما شابه، لأن الشبهة - لديه - كالمرض المعدي، ومن البدهي أنّ المرض لا يكون معدياً إلاّ بعد وجوده في شخصٍ معين، ومن ثم فإن الشبهة لا تعدي الشعرات السوداء الآخر إلاّ بعد ظهورها، لأنه شبهها بالمرض، لذا فالأمر هذا لا يحتاج إلى ذلك التوضيح أو التأكيد من طريق الاعتراض.

مما سبق يتبين لنا أنه لا يُشترط في الاعتراض تقديم الفائدة، وإن كان ذلك هو الأكثر طبعاً، إذ قد تأتي بعض الاعتراضات حشواً، ولا تسجل أو تضيف فائدة ما، كما رأينا في الأبيات السابقة.

وعدّ ابن رشيق القيرواني (ت456هـ) الاعتراض (دع أخاك بمثله) في قول الشاعر:

فَظَلُّوا بِيَوْمٍ -دَعُ أَخَاكَ بِمِثْلِهِ- عَلَى مَشْرِعٍ يُرَوَّى وَلَمَّا يُصْرَدِ

عدّه النقائلاً مليحاً،⁽¹⁾ ورأيه هذا يدل على موقفه المؤيد للاعتراض في النصّ الشعري، فضلاً عن أنّ (القيرواني) تمثّل بمجموعة أخرى من الأبيات الشعرية التي تبين - من جانب أو آخر - اهتمامه بالاعتراض واستحسانه له من خلال وجوده أو دخوله في الشعر.⁽²⁾

غير أنّ (ابن سنان الخفاجي) ت(466هـ) كان مضطرباً في رأيه بالاعتراض؛ لأنه لم يفهمه فهماً دقيقاً، وسمّاه حشواً، وهذا الحشو قد يأتي مفيداً - أو من دون أية فائدة، وهو - بذلك - خالف كلّ من تقدّمه من النقاد والبلاغيين واللغويين الذين اتفقوا على التسمية، وأعني بها (الاعتراض)، وهو (الخفاجي) لم يخالفهم في التسمية فقط، بل اختلف معهم في جوهر المصطلح، إذ تحدث في كتابه (سر الفصاحة) عن وضع الألفاظ موضعها، بوصفه شرطاً من شروط تأليف الألفاظ الصحيح، فقال: "ومن وضع الألفاظ موضعها ألاّ تقع الكلمة حشواً، وأصل الحشو أن يكون المقصد بها إصلاح الوزن أو تناسب القوافي وحرف الروي إنّ كان الكلام منظوماً، وقصد السجع وتأليف الفصول إنّ كان الكلام منثوراً، من غير معنى تفيد أكثر من ذلك، وهذا الباب يحتاج إلى شرح وبيان، وتفصيله أنّ كلّ كلمة وقعت هذا الموقع من التأليف فلا تخلو من قسمين: إمّا أن تكون أثّرت في الكلام تأثيراً لولاهما لم يكن يؤثر، أو لم تؤثر بل دخلها فيه كخروجها منه، وإذا كانت مؤثرة فهي على ضربين: أحدهما أن تفيد فائدة مختارة يزداد بها الكلام حسناً وحلاوة، والآخر: أن تؤثر في الكلام نقصاً وفي المعنى فساداً".⁽³⁾

وبعد أن طرح رأيه المثير للجدل هذا، عدّ القسمين مذمومين، قائلاً: "والقسمان مذمومان، والآخر هو المحمود، وهو أن تفيد فائدة مختارة"⁽⁴⁾، ثم تمثّل ببيت المتنبي الذي يقول فيه:

وَتَحْتَقَرُّ الدُّنْيَا احْتِقَارَ مُجَرَّبٍ يَرَى كُلَّ مَا فِيهَا -وَحَاشَاكَ- فَانِيَا⁽⁵⁾

بوصفه مثلاً على الكلمة التي تقع حشواً وتفيد معنىً حسناً، مسوّغاً رأيه بقوله: "لأنّ - حاشاك - ها هنا لفظة لم تدخل إلاّ لكمال الوزن، لأنك إذا قلت -احتقار مجرب يرى كلّ ما فيها فانيا - كان كلاماً صحيحاً مستقيماً، فقد أفادت مع إصلاح الوزن دعاءً حسناً للممدوح في موضعه".⁽⁶⁾

لقد جانب (ابن سنان الخفاجي) الصواب مرتين، إحداهما: حين عدّ لفظة (وحاشاك) في قول المتنبي، حشواً جاء لكمال الوزن، فحجّم قيمة اللفظة في البيت، وأخرجها من دلالتها الجمالية من جانب، وقلّل - كذلك - من قيمة الاعتراض الذي لم يهتد إليه أصلاً من جانب آخر، والثانية: حين وهّم وعدّ دلالة (وحاشاك) (دعاءً حسناً للممدوح)؛ لأنها - في حقيقة الأمر - كانت تنزيهاً للممدوح واستثناءً له من الدخول في الفناء.

(1) ينظر: العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده 45/2.

(2) ينظر: م.ن 45/2-46.

(3) سر الفصاحة 137.

(4) م.ن 137.

(5) م.ن 138، والبيت في شرح ديوان المتنبي 314/4.

(6) سر الفصاحة 138.

وانتبه محقق كتاب ابن سنان الخفاجي، عبد المتعال الصعيدي إلى الوهم الذي وقع فيه، حين علّق على قول ابن سنان الخفاجي بقوله: "الحق أنّ هذا يقال له اعتراض لا حشو"⁽¹⁾، لذا أرى أنّ الخفاجي لم يكن موفقاً تماماً في حديثه عن الاعتراض وفي آرائه حوله، ومما يؤكد ما ذهبنا إليه أنّ (أسامة بن منقذ) (ت584هـ) الذي جاء بعد (الخفاجي) بأكثر من قرن من الزمن، تحدّث عن الاعتراض في بيت المتنبي نفسه، ولم يسمّه حشواً كما فعل الخفاجي، فقال: "وأعلم أنّ الاعتراض هو أنّ تُذكر في البيت جملةً معترضةً، لا تكون زائدة، بل فيها فائدة"⁽²⁾، وهو الرأي نفسه الذي ذهب إليه (أحمد بن فارس) الذي تحدّثنا عنه سابقاً.

ثمّ تمثّل (ابن منقذ) ببيت المتنبي السابق نفسه، قائلاً عنه: "احتزّر بقوله: حاشاك، من دخوله في الفناء"⁽³⁾، وهذا رأي ناضج جداً إذا ما قيس بقول ابن سنان الخفاجي سابق الذكر.

ومثلما التبس الأمر على (ابن سنان الخفاجي)، التبس على (السكاكي) (ت626هـ)، فهو - أيضاً - لم يفرّق بين (الحشو) و(الاعتراض)، وعدّهما أمراً واحداً، وهذا ما ينافي الحقيقة المتفق عليها من لدن أكثر النقاد والبلاغيين وأصحاب اللغة، فقلّ من قيمة الاعتراض حين عدّه حشواً أولاً، وحين عرّفه ثانياً؛ لأن تعريفه جاء ليؤكد أنّ لا قيمة للجملة الاعتراضية؛ إذ يمكن أنّ يتمّ الكلام من دونها، إذ قال: "الاعتراض: ويسمى الحشو؛ وهو أنّ تدرج في الكلام ما يتمّ المعنى بدونه"⁽⁴⁾.

وبعد تعريفه غير الدقيق هذا، أورد - في كتابه - مجموعة من الآيات الشعرية، وبعض الآيات القرآنية المتضمنة للاعتراض أو الحشو بحسب زعمه - ولم يعلّق عليها بأكثر من إشارته للجمال الاعتراضية.⁽⁵⁾

وذهب مذهب ابن سنان الخفاجي، والسكاكي، قوم آخرون أمثال الزملكاني، وعلي بن محمد الجرجاني، إذ خلطوا بين الاعتراض والحشو أيضاً في معرض تصديهما للاعتراض، ووجدوا أنّ الكلام يتمّ معناه من دون الجملة الاعتراضية، لذا فهو (الاعتراض) حشو لديهما أيضاً،⁽⁶⁾ وهذا من شأنه نفي القيمة الدلالية والجمالية التي يضفيها الاعتراض على النص اللغوي سواء أكان قرآناً أم نصّاً شعرياً.

ولعلّ (ابن الأثير الجزري) (ت637هـ) كان أكثر وعياً وإدراكاً ممّن سبقه في تعامله مع (الاعتراض)، بوصفه مصطلحاً بلاغياً، وفنياً جمالياً، ويبدو ذلك أولاً من خلال قوله عنه: "وبعضهم يسمّيه الحشو"⁽⁷⁾، وكأنه - بتعبيره هذا - غير راضٍ عمّن يسمّي الاعتراض تلك التسمية، ولا سيما أنه تحدّث عنه بوصفه (الاعتراض) ولا شيء سواه، وهذا - بحدّ ذاته - موقف نقدي بارع من لدنه، وثانياً اتّضح لنا وعيه الراقي بخصوص المصطلح وإدراكه المتميّز له من خلال إبراز القيمة الحقيقية له ولفنيته فيما تحدّث وأعطى من آراء بخصوص فائدته سواء في النص القرآني، أو النص الشعري، كما سيتضح لنا من خلال الأمثلة التي تناولها في كتابه (المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر)، في الوقت الذي كانت فيه آراء بعض السابقين له قاصرة وغير دقيقة كما رأينا.

لقد قسم (ابن الأثير) الاعتراض على قسمين، "أحدهما: لا يأتي في الكلام إلا لفائدة، وهو جار مجرى التوكيد"⁽⁸⁾، ومثّل له ببعض الآيات القرآنية، بوصفها أدلة على القيمة الحقيقية التي يؤديها الاعتراض فيها، ومن ذلك استشهاد بالآيات الكريمات التي يقول فيهنّ جلّ من قائل: «فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَغْلَمُونَ عَظِيمٌ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ»⁽⁹⁾، ثمّ قال عن الاعتراض الموجود بين القسم (فلا أقسم بمواقع النجوم) وجوابه (إنّهُ لقرآن كريم): "وفائدة هذا الاعتراض بين القسم

(1) م.ن/ 138، الهامش.

(2) البديع في نقد الشعر / 130.

(3) م.ن/ 130.

(4) مفتاح العلوم/ 667.

(5) ينظر: م.ن/ 667-668.

(6) ينظر: التبيان في علم البيان على اعجاز القرآن/ 174، وكتاب التعريفات/ 24.

(7) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر / 163/2.

(8) م.ن/ 163/2.

(9) الواقعة/ 75-77.

وجوابه إنما هي تعظيم شأن المقسم به في نفس السامع، ألا ترى إلى قوله تعالى (لو تعلمون) اعتراضاً بين الصفة والموصوف، ذلك الأمر بحيث لم عُلِمَ وَفَى حَقُّهُ من التعظيم".⁽¹⁾

وليؤكد (ابن الأثير) كلامه لجأ إلى التمثيل بما يتداوله الناس من الحديث، قائلاً عن تثبيت رأيه في الآيات السابقة: "وهذا مثل قولنا: إنَّ هذا الأمر لعظيم، بحيث لو تعلم يا فلان لقدرته حق قدره، فإنَّ ذلك يكبره في نفس المخاطب، ويظل متطلعاً إلى معرفة عظمتة".⁽²⁾

واستشهد بأية أخرى من سورة النحل، وهي قوله تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ﴾⁽³⁾، مُدَلِّلاً على الاعتراض الذي جاء فيه (سبحانه) كان يقصد التنزيه لله (سبحانه وتعالى) مما تُسَبَّحُ إليه، قال: "وتقديره: ويجعلون لله البنات ولهم ما يشتهون فاعتراض بين المفعولين بسبحانه، وهو مصدر يدل على التنزيه، فكأنه قال: ويجعلون لله البنات وهو منزّه عن ذلك، ولهم ما يشتهون، وفائدة هذا ما هنا ظاهرة".⁽⁴⁾

ولم يأل (ابن الأثير) جهداً، ولم يدخر حجةً في سبيل إثبات القيمة الحقيقية للاعتراض في النص القرآني، وأتته (الاعتراض) لم يأت حشواً، بل جاء لأغراض دلالية تقدّم فائدة لما يسبقها من قول أو لما يلحقها، لذلك نراه يُكثّر من التمثيل بالآيات الكريمات من أجل إثبات قناعتة-وهي الحقيقة- والرد- ولو بطريقة غير مباشرة- على كلّ من ادّعى أنّ الاعتراض ما هو إلّا حشو الكلام ليس إلّا، ومن الآيات التي جاء بها لبيان قيمة الاعتراض فيها، قوله تعالى في سورة يوسف: ﴿قَالُوا نَفَقْدُ صَوَاعِ الْمَلِكِ وَلِمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْتُمْ لِنُفْسِ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ﴾⁽⁵⁾، ثم أعطى رأيه بشأن الاعتراض (لقد علمتم) الذي جاء دحضاً لتهمة السرقة، فقال: "فقلوه: (لقد علمتم) اعتراض بين القسم وجوابه، وفائدته تقرير إثبات البراءة من الفساد، والنزاهة من تهمة السرقة، أي أنه قد علمتم هذا منا، ونحن مع علمكم به نقسم بالله، على صدقه".⁽⁶⁾

كما استشهد بقول تعالى ﴿وَإِذَا بَدَلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنْزِلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾⁽⁷⁾ وقد تمثّل (ابن الأثير) بالآية هذه بعد إشارته إلى أنّ ورود الاعتراض في القرآن كان كثيراً، مشيراً إلى أنّ ذلك في كل موضوع يتعلق بنوع من خصوصية المبالغة في المعنى المقصود⁽⁸⁾، ثم شرع في الحديث عن الاعتراض في الآية السابقة، موضحاً أنّه جاء لإعلام القائلين بما نصّه: "فهذا الاعتراض بين إذا وجوابها، لأنّ تقدير الكلام: وإذا بدلنا آية مكان آية قالوا إنّما أنت مفتر، فاعتراض بينهما بقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنْزِلُ﴾ وهو مبتدأ وخبره، وفائدته إعلام القائلين أنّه مفتر أنّ ذلك من الله وليس منه، وأنّه أعلم بذلك منهم".⁽⁹⁾

وبعد حديث (ابن الأثير) المفصل عن قيمة الاعتراض في النص القرآني، وبيان فائدته بين الكلامين، تحوّل إلى الاستشهاد بالشعر المتضمن له (الاعتراض)، موضحاً فائدته في النصوص الشعرية التي ابتدأها بقول امرئ القيس:

ولو	أنّ	ما	أسعى	لأدنى	معيشة	كفاني	ولم	أطلب	قليل	من	المال
ولكنما	أسعى	لمجد	مؤثّل	وقد	يُدرِكُ	المجد	المؤثّل	أمثالي			

قائلاً عن الاعتراض الذي فيه (ولم أطلب): "تقديره: كفاني قليل من المال، فاعتراض بين الفعل والفعل بقوله: (ولم أطلب) وفائدته تحقيق المعيشة، وأنها تحصل بغير طلب وعناء، وإنما الذي يحتاج إلى الطلب هو المجد المؤثّل".⁽¹⁰⁾

(1) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر 164/2.

(2) م.ن 164/2.

(3) النحل/57.

(4) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر 164/2.

(5) يوسف/73-72.

(6) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر 164/2.

(7) النحل/101.

(8) ينظر: المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر 164/2.

(9) م.ن 164/2.

(10) م.ن 165/2.

وإذا كانت فائدة الاعتراض في قول امرئ القيس تحقير المعيشة، فإنها في بيت جرير:

ولقد أراني-والجديد إلى بلى- في موكب طرف الحديث كرام

دلّت على التعرّي عمّا مضى من متعة النعيم مع أحباب الشاعر، وذلك ما ذكره ابن الأثير بقوله: "تقديره: في موكب طرف الحديث، فاعترض بين المفعولين، وإنما جاء بهذا الاعتراض تعزياً عمّا مضى من اللذة وذلك النعيم الذي فاز به من عشرة أولئك الأحباب، فكأنه قال: ولقد أعهدني في كذا وكذا من اللذة، وذلك قد مضى وبلى جديده، وكذلك كل جديد فإنه إلى بلى".⁽¹⁾

كان (ابن الأثير) معجباً جداً بالاعتراض، وذلك واضح من وراء اهتمامه به في كثرة التمثيل له، وبيان القيمة الفنية والدلالية التي تكمن فيه، من خلال تواجده في النصوص القرآنية أو الشعرية على السواء، فهو بعد أن تمثّل بقولي امرئ القيس وجرير، رأى أنّ "الاعتراض إذا كان هكذا كسا الحديث لطفاً إن كان غزلاً، وكساه أبهة وجلالاً إن كان مديحاً".⁽²⁾ ثم يتحدث عن الاعتراض إذا جاء في الهجاء، "وإن كان هجاءً كساه تأكيداً وإثباتاً"⁽³⁾، وليقوّي ذلك التأكيد والإثبات للاعتراض في الهجاء؛ استشهد بقول كثير عزة:

ولو أنّ الباخلين- وأنت منهم- رأوك تعلموا منك المطالا

وبعدّ وجود الاعتراض هنا من محمود ونادره، ثم يعرب عن فائدته التي تدل على التصريح بما هو المراد، "فقوله: وأنت منهم من محمود الاعتراض ونادره، وفائدته ها هنا التصريح بما هو المراد، وتقدير هذا الكلام قبل الاعتراض: لو أنّ الباخلين رأوك، فاعترض بين اسم أنّ وهو الباخلين، وبين [كذا] خبرها وهو رأوك بالمبتدأ والخبر الذي هو وأنت منهم".⁽⁴⁾

وبعد ذلك تمثّل ابن الأثير ببيت أبي تمام الذي يقول فيه مادحاً:

وإنّ الغنى لي إنّ لحظت مطالبني من الشّعْرِ، إلا في مديحك، أطوع⁽⁵⁾

ومع أنّ في بيت الشاعر اعتراضين، هما (إنّ لحظت مطالبني) و(إلا في مديحك)، إلا أنّ ابن الأثير ركّز - في حديثه- على بيان فائدة الاعتراض الثاني (إلا في مديحك) من دون الأول، فقال: "وتقدير البيت بجملة" وإنّ الغنى أطوع لي من الشعر إنّ لحظت مطالبني إلا في مديحك)، وفائدة قوله (إلا في مديحك) من الاعتراض الذي اكتسب به الكلام دقة وفائدته حسنة، والمراد به وصف جود الممدوح بالإسراع، ووصف خاطر شعره بالإسراع إذا كان في مدحه خاصة دون [كذا] غيره، فهذا الاعتراض يتضمّن مدح الممدوح والمادح معاً، وهو من محاسن ما يجيء في هذا الموضع".⁽⁶⁾

وعلى النحو هذا كان ابن الأثير من أشدّ المدافعين عن قيمة الاعتراض في النص القرآني أو الشعري، فضلاً عن النضج الذي لحظناه في آرائه النقدية التي برزت على السطح في أثناء توضيحه لفائدة الاعتراضات التي أوردها، سواء أكانت في القرآن الكريم، أم في الشعر العربي.

وفعل الخطيب القزويني (ت739هـ) فعل ابن الأثير، ولكن على مستوى أكثر اختصاراً، وأعني بذلك أنّه تمثّل أيضاً ببعض الآيات القرآنية، وبعض الأبيات الشعرية، التي تضمنت وجود الاعتراضات فيها، وحاول الدفاع عن تلك الاعتراضات، من خلال بيان الفائدة المرجوة من مجيئها في نصوصها⁽⁷⁾، وهو بذلك من المؤيدين والمعجبين بالاعتراض على خلاف بعضهم ممّن تكلمنا عليهم سابقاً.

(1) م. ن 166-165/2.

(2) م. ن 166/2.

(3) م. ن 166/2.

(4) م. ن 166/2.

(5) ديوان أبي تمام 333/2.

(6) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر 167/2.

(7) ينظر: الإيضاح في علوم البلاغة، والبيان والبدیع 160-158.

والاعتراض عند (الصنعاني) (كان حياً سنة 749هـ) من أنواع الفصاحة⁽¹⁾ وهو يفيد الكلام "تقوية وتسديداً وتحسيناً"⁽²⁾ من منظور أكثر دقة وتفصيلاً من فعل ابن الأثير، والخطيب القزويني، إلا أنه اقتصر على توضيح فوائد الاعتراض من خلال القرآن الكريم فقط، ولم يتمثل بالشعر مثلهما، وذلك أمر طبيعي بما أن عنوان كتابه هو "البرهان في علوم القرآن"، لذا نراه يستدل بالكثير من الشواهد القرآنية التي احتوت الاعتراض، مبيّناً دلالاته وفوائده في المواطن التي ورد فيها،⁽³⁾ وكان دقيقاً في تحديد القيمة الجمالية والدلالية للاعتراضات التي تطرق لها.

وبعد الرحلة هذه من التتبع الدقيق لآراء النقاد والبلاغيين واللغويين وأقوالهم وبحوثهم في الاعتراض، وعرض القيمة الجمالية والفنية والدلالية للاعتراض في النصوص القرآنية والشعرية التي تناولوها، تبين لنا انهم لم يكونوا وحدهم المدركين لقيمة الاعتراض في النص، بل سبقهم الشعراء أنفسهم في معرفة تلك القيمة، ولاسيما الشعراء العباسيون، بوصفهم موضوع الدراسة، تلك المعرفة التي برزت لنا من خلال إكثارهم من استعماله في أشعارهم، بحيث لم يقتصر استعمالهم له مرة واحدة في القصيدة أو المقطوعة، بل تطرق له بعضهم مرتين في بيت واحد، أو في القصيدة، وبعضهم أفاد منه ثلاث مرات في القصيدة نفسها، بل وأربع مرات لدى عدد منهم، لذا رأيت أنه من المهم التمثيل لتلك النصوص الشعرية التي أكثر فيها أصحابها من استعمال الاعتراض فيها على النحو الذي ذكرناه، لنكون أكثر دقة في إثبات الحقيقة مما لو تحدثنا عنها بشكل عفوي.

فمن نماذج الشعر التي جاء فيها الاعتراض مرتين في بيت واحد، قول بشار بن برد في (سعدى المالكية):

فَبَعَثَتْ بِكِيَّةَ الْحَزِينِ وَقَالَتْ: كُلُّ عَيْشٍ مُودَعٌ عَنْ قَرِيبٍ
كُنْتُ-نَفْسِي الْفَدَا-فَبِنْتُ فَقِيداً اِرْعَ وَدِّي-تَعِمْتُ-غَيْرَ مُرِيبٍ⁽⁴⁾

ففي البيت الثاني اعتراضان، الأول منهما قول الشاعر (نفسى الفدا)، أي نفسي لك الفداء، وهو دعاء من المحبوبة للشاعر بأن تقديه بنفسها، أما الاعتراض الثاني، فهو (تعمت)، وهو أيضاً دعاء من المحبوبة للشاعر بالعيش الرغيد.

و لدعليل الخزاعي قول في الزهد والنصح، ورد فيه اعتراضان في بيت واحد أيضاً، يقول:

الْجَهْلُ بَعْدَ الْأَرْبَعِينَ قَبِيحٌ فَرَعَ الْفُؤَادَ وَإِنْ ثَنَاهُ جُمُوحٌ
وَبِعَ السَّفَاهَةُ بِالْوَقَارِ وَبِالْأَنْهَى ثَمَنٌ-لَعْمَرِكَ-إِنْ فَعَلْتَ-رَبِيحٌ⁽⁵⁾

فالاعتراض في القسم الأول في قوله (لعمرك)، والاعتراض الثاني، قوله (إن فعلت)، بمعنى: إن بعثت السفاهة بالوقار والنهي، فأنتك ستربح حتماً.

وفي مقدمة غزلية للشاعر الخليل الحسين بن الضحّاك، ورد اعتراضان طابق الشاعر بينهما في بيت واحد مطابقة مناسبة جداً في الموطن الذي وردا فيه، إذ قال في غياب المراقبين، ونوم الخدم:

تَيْسَرِي لِلْمَامِ مِنْ أُمَمٍ وَلَا تَرَاعِي حَمَامَةً الْحَرَمِ
قَدْ غَابَ-لَا آبَ-مَنْ يَرِاقِبُنَا وَنَامَ-لَا قَامَ-سَامُرُ الْخَدَمِ⁽⁶⁾

فطابق الشاعر بين الاعتراضين وما قبلهما، ففي صدر البيت طابق بين (غاب) و(لا آب)، وفي عجزه طابق بين (ونام) و(لا قام).

ومن الأمثلة الشعرية التي ورد فيها الاعتراض مرتين في بيت واحد، قول البحتري:

(1) ينظر: الرسالة العسجدية في المعاني المؤيدية/146.

(2) مغني اللبيب عن كتب الأعراب 22/2.

(3) ينظر: البرهان في علوم القرآن 62/3-69.

(4) ديوان بشار بن برد 224/1.

(5) شعر دعليل بن علي الخزاعي/87-88.

(6) أشعار الخليل الحسين بن الضحّاك/104.

فَلَمْ أَمَلْ-إِلَّا مِنْ مَوَدَّتِهِ-يَدِي، وَلَا قَلْتُ-إِلَّا مِنْ مَوَاهِبِهِ-حَسْبِي⁽¹⁾
وكذلك قوله يمدح المعتر بأشبه:

بَقِيْتُ-أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ-مُؤَمَّلًا فَلِلْمَلِكِ نُورٌ-مَا بَقِيْتُ-وَرَوْنِقُ⁽²⁾
وورد الاعتراض كذلك مرتين في بيت واحد في قول الشريف المرتضى الذي يمدح فيه الوزير أبا المعالي، قائلاً:
عُجَّ بِالْوَزِيرِ أَبِي الْمَعَالِي أُنْقِي وَاجْعَلْ إِلَيْهِ غِيْبَتِي وَإِيَابِي
وَاقْطَعْ بِهِ-كِي لَا أَسَافِرَ-أُنْسَعِي وَاعْقِرْ لَهُ-كِي لَا أَرِيْمَ-رَكَابِي⁽³⁾

ولا أجد مسوغاً يمنعني من القول إن في مجيء الاعتراض بالصورة هذه، أقصد وروده مرتين في بيت واحد، أمراً ليس بالسهل، لذا وجدناه يأتي بشكل قليل جداً كما رأينا، من مجموع النتاج الشعري لأكثر من مئة شاعر عباسي، وبالمقابل نراه (الاعتراض) شكلاً قضية مهمة ذات دلالة حقيقية على القيمة التي يحتويها أو يضيفها على النص الشعري، فضلاً عن اهتمام الشعراء به، إلى الدرجة التي يستعملونه فيها أكثر من مرة في بيت واحد.

إلا أنه من اللافت لنظر المتلقي أن مواطن ورود الاعتراض مرتين على مستوى القصيدة أو المقطوعة الشعرية الواحدة، كان كثيراً جداً في الشعر العباسي، فهو على العكس تماماً من مواطن وروده مرتين على مستوى البيت الواحد، وليس في الأمر عجب، لأن المساحة المكانية في القصيدة أو المقطوعة أكبر منها في البيت الواحد، مما تشكل صعوبة كبيرة في تمكّن الشاعر من الإتيان به لأكثر من مرة، ولذلك وجدنا كمّاً كبيراً من الشعراء الذين استطاعوا استعماله مرتين على مستوى القصيدة الواحدة أو المقطوعة الواحدة كما سنرى.

فمن الشعراء الذين استعملوا الاعتراض مرتين على مستوى المقطوعة، العباس بن الأحنف في قوله:

وَقَدْ أَبَدْتُ لَكَ الْعَيْنَانِ أَنِّي عَلَى طَوْلِ النُّوَى-لَكَ غَيْرُ قَالٍ
وَلَسْتُ-وَإِنْ بَدَأْتُ بِقَطْعِ حَبْلِي-عَلَى حَالٍ لَوْصِكُمْ بِسَالٍ⁽⁴⁾

فهذان اعتراضان في بيتين متتاليين من أصل مقطوعة تتكون من ستة أبيات فقط. ومنهم دعبل الخزاعي الذي أورده (الاعتراض) مرتين في بيتين على التوالي في مقطوعة لم تتجاوز ثلاثة أبيات فقط، قال فيها:

سَأَلْتُ النَّدَى-لَا عَدَمْتُ النَّدَى-قَدْ كَانَ مِنَّا زَمَانًا عَزَبُ
فَقُلْتُ لَهُ:-طَالَ عَهْدُ اللَّقَا، فَهَلْ غَبَتْ-بِاللَّهِ-أَمْ لَمْ تَغِبْ؟
فَقَالَ:بَلَى، لَمْ أَزَلْ غَائِبًا وَلَكِنْ قَدِمْتُ مَعَ الْمُطَلِّبِ⁽⁵⁾

وللشاعر نفسه مقطوعة من أربعة أبيات أورد فيها اعتراضين في البيت الأول، وفي البيت الثالث منها، وكان فيها هاجباً لشخصين، وساخراً من نسبهما وطاعناً فيه، يقول فيها:

سَأَلْتُ أَبِي-وَكَانَ أَبِي خَبِيرًا بُسْكَانَ الْجَزِيرَةِ وَالسَّوَادِ-
فَقُلْتُ لَهُ:أَهَيْئُمْ مِنْ غَيْي؟ فَقَالَ: كَأَحْمَدَ بْنِ أَبِي دَوَادِ
فَإِنْ يَكْ هَيْئُمْ مِنْ جَذْمٍ قَيْسٍ فَأَحْمَدُ-غَيْرِ شَكٍّ-مِنْ إِيَادِ

(1) ديوان البحتري 105/1، أمل: أصلها: أملأ.

(2) م.ن 1536/3.

(3) ديوان الشريف المرتضى 253/1، الأينق: جمع الناقة. الأنسج: جمع النسج: وهو سير من جلد مظفور تشد به الرحال، وأريم: أفرق.

(4) ديوان العباس بن الأحنف 225.

(5) شعر دعبل بن علي الخزاعي 66، عزب: بَعَدَ وغاب.

متى كانت إبادُ تريسُ قوماً لقد غَضِبَ الإلهُ على العبادِ (1)

ولخالد الكاتب مقطوعة غزلية جميلة من أربعة أبيات أيضاً، جاء فيها استعماله للاعتراض مرتين، مرة في البيت الثاني منها، ومرة أخرى في البيت الأخير، يقول:

هل كان طرفُكَ يعرفُ الخيلا أو كان لحظُكَ مُلكَ الأجلِ
ألناظريك-فداك-مُدَّ رمياً سوداءَ مُهجتهِ ومَنْ قَتَلَ
أنْ يأخذاً قيساً بلحظهما مَنْ ليس يقبلُ في الهوى عدلاً
ما كان ضرهما-وقد ملكا- أنْ ينعمَ بالعطفِ أو يصل (2)

ويأتي الاعتراض في البيتين الرابع والسادس في مقطوعة البحري المتألفة من ستة أبيات غزلية، يسعى فيها الشاعر إلى كسب ودّ الحبيبة من خلال بثّ ارقّ المشاعر فيها، واستعمال أعذب الألفاظ والتراكيب فذلك كله نجده في قوله مبالغاً في الغزل:

أنا في أسرتي وأهلي كأنني بينهم-حين لا أراك- غريب
[....]

فأهيني أو أكرمي، فلعمري ما لأنثى-سواك- عندي نصيب (3)

ومن الغزل الإنساني ننقل مع الشاعر أبي بكر الشبلي إلى الغزل في الذات الإلهية والحب الإلهي الراقي الذي يسمو على كل حُبٍّ لدى المتصوفة، ففي مقطوعة للشاعر تتكوّن من ثلاثة أبيات فقط، نجد اعتراضين في البيتين الثاني والثالث منها، يتحدث فيها الشاعر عن علاقته بالله (سبحانه وتعالى) من المنظار الذي ينظر به المتصوفة طبعاً للذات الإلهية، فيقول:

ليس تخلو جوارحي منك وقتاً هي مشغولة بحملِ هواك
ليس يجري على لساني شيءٌ -علمِ الله ذا- سوى ذكراك
وتمثلت حين كنت بعيني فهي -إن غبت أو حضرت- تراكا (4)

كانت الأمثلة السابقة أدلة على اهتمام الشعراء بالإفادة من دلالات الاعتراض مرتين على مستوى المقطوعات الشعرية كما رأينا، أما فيما يتعلّق باهتمام الشعراء العباسيين بالاعتراض على مستوى القصائد من خلال استعمالهم له مرتين، فهي كثيرة جداً سنحاول الإحاطة بها من طريق عرضها والاستدلال بها فيما سيأتي.

وأول الشعراء العباسيين الذين أفادوا من مزية الاعتراض مرتين في قصائده هو الشاعر بشار بن برد، الذي أورده في بيتين، هما الثالث والخامس من قصيدته التي بلغت اثني عشر بيتاً، قالها في الغزل:

يا ربّ قائلَةٍ - وغيبَ - علمُها -: ماذا يهيجُك من نعيقِ غرابٍ

[....]

ودواء عيني - قد علمتُ - ودأؤها رياً البنان كدمية المخراب (5)

(1) م.ن/293-294.

(2) ديوان خالد الكاتب /390-391.

(3) ديوان البحري 1/318.

(4) ديوان أبي بكر الشبلي/117.

(5) ديوان بشار بن برد 1/241-242، الدمية: الصورة من العاج، والمخراب: موضع العبادة من كنيسة النصارى.

وله قصيدة أخرى تتكون من تسعة عشر بيتاً، قالها في(حبّاء العامرية)، جاء فيها الاعتراض مرّة في البيت الثالث، وأخرى في البيت السادس عشر، يقول فيهما:

حَدَّثَنِي — فقد وَقَعْتُ بِشَكِّ - أَتَعَمَّدُ سُخْطَنَا ام غَبِيَّتِ
[....]

كيف صَبْرِي - وَأَنْتِ عِنْدِي كَنَفْسِي - بمكان المُبَاعِدِ المَمْقُوتِ⁽¹⁾

وتطرق عبد الله بن المبارك إلى الاعتراض في بيتين هما التاسع والعاشر في ضمن قصيدته التي تبلغ أربعة عشر بيتاً، متحدثاً فيها عن حال الناس يوم القيامة، قائلاً:

يَوَدُّ قَوْمٌ ذُوو عَزٍّ لَوْ أَنَّهُمْ هُمُ الْخَنَازِيرُ - كِي يَنْجُوا - أَوْ الضَّبُعُ
كَيْفَ شُهُودُكَ وَالْأَنْبَاءُ وَاقِعَةٌ - عَمَّا قَلِيلٍ - وَلَا تَدْرِي - بِمَا يَقَعُ⁽²⁾

وللعباس بن الأحنف باع طويل في استعمال الاعتراض في شعره، فمن ذلك استعماله له في البيت الثامن، والثامن عشر من قصيدة أصلها واحد وعشرون بيتاً، يقول في ضمنها:

لَوْ أَنَّ مَاءَ الْعَيْنِ - مِنْ طَوْلٍ مَا يَجْرِي - فَرَاتٌ غَاضٌ مَاءُ الْفَرَاتِ
[....]

والله لَا أَسْمَعُ فِي حُبِّكُمْ - حَتَّى أَنْوِقَ الْمَوْتَ - قَوْلَ الْوُشَاةِ⁽³⁾

ويقول أيضاً في اعتراضين تضمّننا البيتين التاسع، والحادي عشر، مادحاً جمال حبيبته، ومذكراً إياها بأيام اللقاء الجميلة في قصيدته التي بلغت ستة عشر بيتاً:

مَا ضَرَّ أَهْلَكَ إِلَّا يَنْظُرُوا أَبَدًا مَا دُمْتَ فِيهِمْ - إِلَى شَمْسٍ وَلَا قَمَرٍ؟

[....]

هل تَذَكِّرِينَ - فَدَتِكَ النَّفْسُ - مَجْلِسَنَا يَوْمَ الْلِقَاءِ فَلَمْ أَنْطِقْ مِنْ الْحَصْرِ؟⁽⁴⁾

وللقصائد التي تغنّت بالخمرة نصيبها من الاعتراض أيضاً، ففي قصيدة بلغ عدد أبياتها أربعة وأربعين بيتاً للشاعر أبي الشيص الخزاعي، استعمل فيها الاعتراض مرّة في البيت الرابع عشر في مدح الخمرة، ومرة في البيت السابع عشر في كناية عن استمرار شربهم لها حتى ظهور الفجر، يقول:

رَبِيبَةُ أَحْقَابٍ جَلَا الدَّهْرُ وَجْهَهَا فَلَيْسَ بِهَا - إِلَّا تَلَأَلَوْهَا - نَدَبٌ

[....]

سَقَانِي بِهَا - وَاللَّيْلُ قَدْ شَابَ رَأْسُهُ - غَزَالٌ بَحْنَاءُ الزَّجَاجَةِ مُخْتَضَبٌ⁽⁵⁾

أما بكر بن النطاح، فإنه يرفض شرب الخمرة، ويدعو الساقى إلى إعطائها لصاحبه بدلاً عنه؛ لأنه يرى في شربه لها دلالة على سروره بهجر الحبيبة (دُرّة) التي ابتعدت عنه، لذا نراه يوتّخ الساقى في اعتراضه الأول في البيت السابع، ويذكر كلمة (الهجر) في اعتراضه الثاني في البيت الثامن، الذي يختم قصيدته قائلاً:

سَاقِي النَّدَامَى سَقَّهَا صَاحِبِي فَاتْنِي - وَيَحْكُ - مَغْذُورٌ

(1) م.ن 4-3/2.

(2) ديوان الإمام عبد الله بن المبارك /55.

(3) ديوان العباس بن الأحنف /67-68.

(4) م.ن/119.

(5) أشعار أبي الشيص الخزاعي وأخباره /29.

أشربُ الخمرَ على هجرها إنِّي إذاً - بالهجر - مسرورٌ⁽¹⁾

وحين يرى دعل الخزاعي النهر يفيض ماءً، نراه يفيد منه في اعتراض جميل، ولكنه يبعث الحزن والأسى في نفسه، ونفس متلقيه، لأنه يذكره باستشهاد الإمام الحسين (عليه السلام) ظامناً، ولذلك يتجه في اعتراضه الثاني - إلى الدعاء على (عمر بن سعد) بأن يعذب الله تعالى روحه، وقد تطرق الشاعر لهذين الاعتراضين في البيتين الثامن والعاشر من أصل قصيدة بلغت اثني عشر بيتاً، قال في بعضها:

أنسى- وهذا النهر يطفح- ظامناً قتيلاً ومظلوماً بغير ترات

[....]

فقل لابن سعد- عذب الله روحه- ستلقى عذاب النار واللغات⁽²⁾

وفي قصيدة مضمونها المديح للشاعر إبراهيم بن المدبر، بلغت أحد عشر بيتاً، ورد فيها اعتراضان في أول بيتين منها، يقول فيهما مخاطباً ممدوحه:

دعوتك من كرب قلبيت دعوتي ولم تعترضني- إذ دعوت- المعانر

إليك- وقد خللت- أوردت همتي وقد أعجزتني عن هومي المصادر⁽³⁾

ونبقى في غرض المديح مع البحري، الذي نال الاعتراض لديه أهمية كبيرة، فقد استعمله مرتين أيضاً في قصيدة كان عدد أبياتها أربعة وخمسين بيتاً، جاء الاعتراضان فيها في بيتين متتالين هما التاسع والثلاثون، والأربعون، قال فيهما:

وقد كان- فيما كان- سخطاً لساخط وهجاً لمهتاج، وعتباً لعاتب

وفي غفوه- لو تعلمون- عقوبة تقفع في الأعراض إن لم يعاقب⁽⁴⁾

ومن الجدير بالذكر أن البحري استعمل الاعتراض مرتين على مستوى القصيدة الواحدة عدة مرات⁽⁵⁾، إذ كان مغماً به في مختلف المناسبات والأغراض الشعرية التي تناولها، ولاسيما المدح والغزل على وجه الخصوص، مفيداً من دلالاته المختلفة، وفوائده المتعددة.

وعرف ابن الرومي بطول النفس الشعري، ولذلك لا نجد غرابة حين يستعمل الاعتراض مرتين في قصيدة مدحية تبلغ واحداً وثلاثين ومئتي بيت؛ فانتساع المساحة المكانية في القصيدة يجعل من الوارد استعمال الاعتراض مرتين، المرة الأولى في البيت السابع والعشرين والمئتين، والثانية في البيت الحادي والثلاثين والمئتين، قائلاً:

تراه عن الحرب العوان بمغزل وأثاره فيها- وإن غاب- شهد

[....]

صفا ونفى عنه القذى فكأنه -إذا ما استشفته الغفول- مصعد⁽⁶⁾

إلا أن ذلك لا يعني أن ابن الرومي لم يتمكن من استعماله بالعدد نفسه في قصائده القصار؛ لأننا وجدنا له قصيدة مدحية أخرى، كان عدد أبياتها اثني عشر بيتاً فقط، ومع ذلك، فإنه اعترض فيها مرتين في البيت الأول، والثامن، يقول في البيتين اللذين تضمنتا الاعتراض منها:

سأحمد- بعد الله- في كل مشهد أباً حسن أعني علي بن أحمد

(1) بكر بن النطاح /262.

(2) شعر دعل بن علي الخزاعي/240.

(3) إبراهيم بن المدبر/361.

(4) ديوان البحري 1/182، تقف: من القعدة: وهي صوت السلاح وصوت الرعد.

(5) ينظر: م. 1/310-311، 3/1385-1387، 1624، 1676-1678، 1923.

(6) ديوان ابن الرومي 2/600.

[....]

وكلّ امرئ يَبْقَى جميلُ ثنائِه - وإن كان يمضي - فهو مثلُ المخلدِ (1)

ولم يقتصر استعمال الاعتراض مرتين على مستوى القصيدة الواحدة لدى الشعراء العباسيين السابقين فقط، بل تعدى الأمر إلى شعراء عباسيين آخرين غير الذين تمثّلنا بنماذج من قصائدهم، إلّا أنّ المنهج يتطلب منا عدم التمثيل لهم كلهم، والاقتصار على بعض الأمثلة التي رأينا أنها أعطت صورة بارزة المعالم، وحققت في أذهان المتلقي الاهتمام الكبير بظاهرة الاعتراض من لدن الشعراء العباسيين. (2)

إلّا أنّ بعض الشعراء العباسيين من الأسماء السابقة وغيرها، لم يكتفوا بتضمين الاعتراض مرتين فحسب في قصائدهم، بل زادوا على ذلك مرّة أخرى، فأصبح الاعتراض -لديهم- يرد ثلاث مرّات في بعض قصائدهم، ولدينا أمثلة كثيرة أيضاً على ذلك الاستعمال، إلّا أنّه لم يكن بالكثرة التي حقّقها استعمال الاعتراض لمرتين فقط؛ لما في ذلك من صعوبة طبعاً، كون الاعتراض يجب أن يكون على علاقة بما قبله أو بعده من ناحية المعنى والدلالة، لا من الناحية اللغوية أو الإعراب.

وأول من تطرّق لتضمين الاعتراض ثلاث مرّات في قصيدته هو الشاعر العباس بن الأحنف، وذلك في قصيدة كان تعداد أبياتها سبعة وعشرين بيتاً، جاء الاعتراض فيها في الأبيات السادس عشر، والخامس والعشرين، والسابع والعشرين، يقول فيها:

إليك -بنفسي أنت -أشكو بليّي وقد دُفْتُ طعم الموت لولا تشجّعي

[....]

تمنّيتُ أن تُسقي من الحُبِّ شربتي وأن ترنّعي من لوعة الحُبِّ مرّتي
وأن تُصبّجي وأن تتضجّعي -إذا الليلُ ألقى ستره- كتضجّعي

[....]

وردت -وبعضُ الورْد فيه مرارة- حياض الهوى من كلّ افحّ مُترع (3)

كما تطرّق ربيعة الرقي للاعتراض ثلاث مرّات في قصيدته المكونة من اثنين وعشرين بيتاً، تواجدت الاعتراضات في أبيات القصيدة الثالث، والعاشر، والحادي عشر، وكانت تلك الاعتراضات متنوعة الدلالات فيها، قال:

ستصمّرُ إنساناً -إذا ما صرمتني- يُحبّك، فأنظرُ بعده من تبدّل

[....]

وكيف بصبر القلب -لا كيف- عنكم وبابُ فؤادي دون صرْمِك مُفقل؟

ومن أين -لا من أين- يُحرّم قتلُكم وقتلي لكم يا أمّ ليلى مُحلّل؟ (4)

وعلى النحو هذا تعددت النصوص الشعرية لدى شعراء العباسيين التي ورد فيها الاعتراض ثلاث مرّات، وللأسبب السابق نفسه، لا نتمكن من عرضها كلها، ونكتفي بالإحالة لها، (1) وبوصف ذلك دليلاً على اهتمام الشعراء باستعمال الاعتراض للإفادة من جماليته الفنية والدلالية في الشعر الذي تضمّنه.

(1) م. ن 682/2-683.

(2) ينظر: ديوان الحلاج/ 22، ديوان الصاحب بن عباد/ 120-124، ديوان مهيار الديلمي 130/1-132، 195، 358-361، 56/2، 263-264، 337-336، 75/3، 254-256، ديوان الشريف المرتضى 415/2، ديوان ابن الخياط/ 205-206، ديوان الأرجاني 4/1-5، 1453-1450، 1308/3.

(3) ديوان العباس بن الأحنف/ 169-170.

(4) شعر ربيعة الرقي/ 84-85.

وفي أحيان قليلة ورد الاعتراض لدى بعض الشعراء أربع مَرَّات، ومن اللافت للنظر أنَّ وروده بالعدد هذا كان في مقطوعتين فقط، إحداهما للعباس بن الأحنف، والأخرى لأحمد بن أبي طاهر طيفور، ولم يرد هذا العدد من الاعتراضات في القصائد مطلقاً بحسب بحثنا واطلاعنا على مجموع الشعر العباسي، لذا فهو يمثل اهتمام هذين الشاعرين به من خلال جعل مقطوعتيهما ممثلتين بالاعتراضات، فمقطوعة العباس بن الأحنف تألفت من خمسة أبيات فقط، ورد الاعتراض في أبياتها جميعها باستثناء البيت الرابع فقط، قال فيها:

إِنِّي أَطِيلُ - وَإِنْ لَمْ أَرْجُ طَلَعَتَهَا - وَفَنِي وَإِنِّي إِلَى الْأَبْوَابِ نَظَّارُ
أَقُولُ لِلدَّارِ - إِذْ طَالَ الْوَقُوفُ بِهَا - بَعْدَ الْكَلَالِ وَمَاءُ الْعَيْنِ مِدْرَارُ -
يَا دَارُ هَلْ تَفْقَهُينَ الْقَوْلَ عَنْ أَحَدٍ؟ أَمْ لَيْسَ - إِنْ قَالَ - يُغْنِي عَنْهُ إِكْثَارُ؟
يَا دَارُ إِنْ غَزَلَا فِيكَ بَرَحَ بِي اللَّهِ دَرَكُ ! مَا تَحْوِينَ يَا دَارُ!
الدار تملكني - ويحي - وصاحبها قلبي مليكان ربُّ الدار والدار⁽²⁾

أما مقطوعة أحمد بن أبي طاهر طيفور، فكانت أربعة أبيات فقط، جاء الاعتراض في كلِّ بيت منها، وكانت دلالة الاعتراض في كل بيت مختلفة عن دلالاته في الأبيات الأخرى، وهذا دليل إبداع الشاعر حتماً من جهة، ومن جهة أخرى شكَّلَ دليلاً على تقصُّده بالاهتمام باستعمال الاعتراض والتنويع في فائدته، إذ قال متغزلاً:

حَبِيبِي حَبِيبٌ يَكْتُمُ النَّاسَ أَنَّهُ لَنَا - حِينَ تَرْمِينَا الْعَيُونَ - حَبِيبُ
يُبَاعِدُنِي فِي الْمُلْتَقَى وَفَوَادُهُ وَإِنْ هُوَ أَبْدَى لِي الْبَعَادَ - قَرِيبُ
وَيُعْرِضُ عَنِّي - وَالْهَوَى لِي مَقْبَلُ إِذَا خَافَ عَيْنًا، أَوْ أَشَارَ رَقِيبُ
فَتَخْرُسُ مِنَّا أَلْسُنٌ - حِينَ نَلْتَقِي - وَتَنْطِقُ مِنَّا أَعْيُنٌ وَقُلُوبُ⁽³⁾

وأخيراً، وبعد أن تعرَّفنا مفهوم الاعتراض لغة واصطلاحاً، أدركنا القيمة الحقيقية له لدى أكثر النقاد والبلاغيين واللغويين إلّا ما ندر، من خلال مدحهم لوجوده في النص القرآني أو في النص الشعري كما تبين لنا، كما أثبتنا قيمته العليا عند كثير من الشعراء العباسيين الذين اهتموا به كثيراً، وتداولوه في أشعارهم التي تمثلنا بها، وأحلنا لبعضها.

المصادر والمراجع

- القرآن الكريم، أكرم المصادر وأشرفها.
- إبراهيم بن المدبر، ضمن: شعراء عباسيون، الدكتور يونس أحمد السامرائي، عالم الكتب، مكتبة النهضة العربية، بيروت، 1986م.
- أبو علي البصير، حياته وشعره، ضمن: شعراء عباسيون، الدكتور يونس أحمد السامرائي، ج2، عالم الكتب، مكتبة النهضة العربية، بيروت، 1987م.
- أحمد بن أبي طاهر طيفور، حياته - شعره - رسائله، دراسة وتحقيق: هلال ناجي، ضمن: أربعة شعراء عباسيون، الدكتور نوري حمودي القيسي، الأستاذ هلال ناجي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1994.
- أشعار الخليل الحسين بن الضحَّاك، جمعها وحققها: عبد الستار أحمد فراج، دار الثقافة - بيروت، طبع في دار مجلة شعر، بيروت، 1960.

(1) ينظر: محمد بن كناسة الأسدي، حياته، شعره، نصوص باقية من كتابه: الأنواء/311-312، ديوان مهيار الديلمي 19/1، 59، 289/2-290، ديوان الشريف المرتضى 2/469-471، ديوان الأرجاني 1/59، 914/3-919.

(2) ديوان العباس بن الأحنف/109-110.

(3) أحمد بن أبي طاهر طيفور، حياته - شعره - رسائله/290.

- الايضاح في علوم البلاغة، المعاني والبيان والبديع، تأليف: الخطيب القزويني، جلال الدين محمد بن عبد الرحمن بن عمر بن أحمد بن محمد، وضع حواشيه: إبراهيم شمس الدين، منشورات محمد علي بيضون لنشر كتب السنة والجماعة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2003.
- البديع في نقد الشعر، أسامة بن منقذ، تحقيق: الدكتور أحمد أحمد بدوي، الدكتور حامد عبد المجيد، ومراجعة: الأستاذ إبراهيم مصطفى، الجمهورية العربية المتحدة، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، ملتزم الطبع والنشر: شركة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، القاهرة، 1960م.
- البرهان في علوم القرآن، الإمام بدر الدين محمد بن عبدالله الزركشي، خرّج حديثه وقدّم له وعلق عليه: مصطفى عبد القادر عطا، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 2005م.
- بكر بن النطّاح، ضمن: عشرة شعراء مقلّون، صنعة الأستاذ الدكتور حاتم صالح الضامن، وزارة التعليم العالي والبحث العلمي، جامعة بغداد، مطابع دار الحكمة للطباعة والنشر، الموصل، 1990م.
- التبيان في علم البيان المطلع على إعجاز القرآن، عبد الواحد عبد الكريم الزملكاني، تحقيق: الدكتور أحمد مطلوب، والدكتورة خديجة الحديثي، بغداد، 1964م.
- تهذيب اللغة، لأبي منصور محمد بن أحمد الأزهرى، حقّقه وقدّم له: عبد السلام هارون، راجعه: محمد علي النجار، د.ط، د.ت.
- حلية المحاضرة في صناعة الشعر، لأبي علي محمد بن الحسن بن المظفر الحاتمي، تحقيق: الدكتور جعفر الكتاني، الجمهورية العراقية، وزارة الثقافة والاعلام، دار الرشيد للنشر، دار الحرية للطباعة، 1979م.
- خزانة الأدب وغاية الارب، أبو بكر علي بن حجة الحموي، القاهرة، 1304هـ.
- الخصائص، صنعة: أبي الفتح عثمان بن جني، تحقيق: محمد علي النجار، الناشر: دار الكتاب العربي، بيروت، د.ت.
- ديوان ابن الخياط، أبي عبدالله أحمد بن محمد بن علي التغلبي المعروف بابن الخياط الدمشقي، رواية تلميذه: أبي عبدالله محمد بن نصر بن صغير الخالدي القسيري، عني بتحقيقه: خليل مردم بك، دار صادر، بيروت، ط2، 1994م.
- ديوان ابن الرومي، أبي الحسن علي بن العباس بن جريح، تحقيق: الدكتور حسين نصّار، مطبعة دار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة، 1424هـ-2003م، ج2 وج3، شارك في تحقيق هذين الجزئين: د. سيدة حامد، د. محمد عادل خلف، زينب القوصي، منير المدني.
- ديوان أبي بكر الشبلي، جعفر بن يونس المشهور بدلف بن جدر، جمعه وحقّقه وعلق حواشيه وقدّم له: الدكتور كامل مصطفى الشبيبي، طبع على مطابع دار التضامن، بغداد، 1967م.
- ديوان أبي تمام، بشرح الخطيب التبريزي، تحقيق: محمد عبده عزام، دار المعارف بمصر، م2، 1969م.
- ديوان الأرجاني، ناصح الدين أبي بكر أحمد بن محمد بن الحسين، تحقيق: الدكتور محمد قاسم مصطفى، منشورات وزارة الثقافة والاعلام- الجمهورية العراقية، ج1، 1979م، وج3، دار الرشيد للنشر، طبع بمطابع مؤسسة دار الكتب للطباعة والنشر، جامعة الموصل، 1981م.
- ديوان الأعشى، دار الكتب العلمية، بيروت، 1987م.
- ديوان الإمام عبدالله بن المبارك، جمع وتحقيق ودراسة: د. مجاهد مصطفى بهجة، دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع - المنصورة، ط3، 1992م.
- ديوان البحترى، عني بتحقيقه وشرحه والتعليق عليه: حسن كامل الصيرفي، دار المعارف بمصر، ج1، ط2، د.ت، ج3، 1965م.

- ديوان بشار بن برد، تقديم وشرح وتكميل: محمد الطاهر بن عاشور، د.ط، د.ت.
- ديوان الحلاج، صنعه وأصلحه: الدكتور كامل مصطفى الشبيبي، طبع على مطبعة المعارف، بغداد، 1974م.
- ديوان خالد الكاتب، من شعراء القرن الثالث الهجري، تحقيق ودراسة: الدكتور يونس أحمد السامرائي، طبع بمطبعة دار الرسالة، 1981م.
- ديوان الشريف المرتضى، حققه ورتب قوافيه وفسر ألفاظه: رشيد الصفار، راجعه وترجم أعيانه: الدكتور مصطفى جواد، قدّم له: الفقيه الأديب الشيخ محمد رضا الشبيبي، دار البلاغة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 1998م.
- ديوان الشماخ بن ضرار، دار المعارف، مصر، د.ت.
- ديوان صاحب بن عباد، تحقيق: الشيخ محمد حسن آل ياسين، منشورات دار القلم، بيروت، مكتبة النهضة- بغداد، ط2، 1974م.
- ديوان العباس بن الأحنف، شرح وتحقيق: عاتكة الخزرجي، مطبعة دار الكتب المصرية- القاهرة، 1954م.
- ديوان كثير عزّة، شرحه: عدنان زكي درويش، دار صادر، بيروت، 1994م.
- ديوان مهيّار الديلمي، منشورات الشريف الرضي، مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة، ج1 و ج2، 1925م، ج3، 1930م.
- ديوان النابغة الذبياني، شرح وتقديم: عباس عبد الساتر، منشورات محمد علي بيبضون لنشر كتب السنة والجماعة، دار الكتب العلمية، بيروت، 2004م.
- الرسالة العسجدية في المعاني المؤيدية، عباس بن علي بن أبي عمر الصنعاني، تحقيق: عبد المجيد الشرفي، ليبيا- تونس، 1976م.
- سر الفصاحة، للأمير أبي محمد عبدالله بن سعيد بن سنان الخفاجي الحلبي، شرح وتصحيح: عبد المتعال الصعيدي، مطبعة محمد علي صبيح وأولاده بالأزهر، 1969م.
- شرح ديوان المتنبي، وضعه: عبد الرحمن البرقوقي، الناشر: دار الكتاب العربي، بيروت، 1938م [تاريخ مقدمة الطبعة الثانية].
- شعر دعل بن علي الخزاعي، صنعة: الدكتور عبد الكريم الأشتري، دمشق، 1964م [تاريخ المقدمة].
- شعر ربيعة الرقي، جمعه وحققه وقدّم له: الدكتور يوسف حسين بكار، دار الرشيد للنشر، منشورات وزارة الثقافة والاعلام- الجمهورية العراقية، دار الحرية للطباعة - بغداد، 1980م.
- الصحابي في فقه اللغة العربية ومسائلها وسنن العرب في كلامها، تأليف: الإمام العلامة أبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريّا من لغويي القرن الرابع الهجري، علّق عليه ووضع حواشيه: أحمد حسن بسج، منشورات: محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، 1997م.
- العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، تأليف: أبي علي الحسن بن رشيق القيرواني الأزدي، حققه وفصله وعلّق حواشيه: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الجيل للنشر والتوزيع والطباعة، بيروت، ط4، 1972م.
- القاموس المحيط، العلامة محمد بن يعقوب بن محمد بن إبراهيم الفيروزآبادي، تحقيق وتقديم: د. يحيى مراد، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع - القاهرة، 2008م.
- قاموس المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للرافعي، تأليف العالم أحمد بن محمد بن علي المقرئ الفيومي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 2005م.
- كتاب البديع، عبدالله بن المعتز، اعتنى بنشره والتعليق عليه وإعداد فهرسه: المستشرق اغناطيوس كراتشكوفسكي، منشورات دار الحكمة، حلبوني- دمشق، د.ت.
- كتاب التعريفات، علي بن محمد الجرجاني، مؤسسة التاريخ العربي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 2003م.

- كتاب الصناعتين الكتابة والشعر، تصنيف: أبي هلال الحسن بن عبدالله بن سهل العسكري، حققه وضبط نصّه: مفيد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط2، 1989م.
- لسان العرب، للعلامة ابن منظور، قدّم له: العلامة الشيخ عبدالله العليّلي، إعداد وتصنيف: يوسف خياط، نديم مرعشلي، دار لسان العرب، بيروت.
- المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تأليف: ضياء الدين نصر الله بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم ابن الأثير الجزري، حققه وعلق عليه: الشيخ كامل محمد محمد عويضة، منشورات: محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، 1998م.
- محمد بن كناسة الأسدي، حياته، شعره، نصوص باقية من كتابه : الأنواء، محمد قاسم مصطفى، مجلة آداب الرافدين، تصدر عن كلية الآداب/ جامعة الموصل، ع6، جمادى الأولى 1395هـ- حزيران 1975م.
- مختار الصحاح، الشيخ الإمام محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي، عنيت بضبط هذه الطبعة وتصحيحها السيدة سميرة خلف الموالي، المركز العربي للثقافة والعلوم، نشر. توزيع، بيروت، د.ت.
- معالم الكتابة ومغانم الإصابة، عبد الرحيم بن علي بن شيث القرشي، نشره الخوري قسطنطين المخلصي، بيروت، 1993م.
- معجم المصطلحات البلاغية وتطورها، تأليف: الدكتور أحمد مطلوب، مطبعة المجمع العلمي العراقي، 1403هـ- 1983م.
- المعجم المفصل في اللغة والأدب، نحو- صرف- بلاغة- عروض-إملاء- فقه اللغة - أدب- نقد- فكر أدبي، تأليف: الدكتور إميل بديع يعقوب، الدكتور ميشال عاصي، دار العلم للملايين، بيروت، 1987م.
- معجم مقاييس اللغة، تأليف: أبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا الرازي، وضع حواشيه: إبراهيم شمس الدين، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، 1999م.
- المعجم الوسيط، قام بإخراجه: إبراهيم مصطفى، أحمد حسن الزيات، حامد عبد القادر، محمد علي النجار، المكتبة الإسلامية للطباعة والنشر والتوزيع، 1972م [تاريخ مقدمة الطبعة الثانية].
- مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، ابن هشام الأنصاري، قدّم له: حسن محمد، أشرف عليه: د. إميل بديع يعقوب، منشورات : محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، 1998م.
- مفتاح العلوم، تأليف: أبي يعقوب يوسف بن أبي بكر بن محمد بن علي السكاكي، تحقيق: أكرم عثمان يوسف، مطبعة دار الرسالة- بغداد، 1982م.